دور الجامعة الجزائرية في صناعة الأمن الفكري- الواقع والمأمول-

د. زبيدة الطيب - جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة.

ملخص:

يتناول موضوع المقال الذي يحمل عنوان: **دور الجامعة الجزائرية في صناعة الأمن الفكري- الواقع والمأمول-** مفهوم الأمن الفكري في السياق الإسلامي؛ والذي تهيمن عليه رؤية مفادها أن الأمن الفكري لا يتحقق إلا بالتموقع على الذات، وحظر الإنفتاح على المخالف في الدين أو المذهب أو الرأي ... بدعوى الحفاظ على الهوية التي يمثل الدين الإسلامي عمودها الفقري، وأخرى نراها أقرب إلى روح الإسلام وأقدر على تحقيق الأمن والانسجام بين مختلف مكونات المجتمع؛ وهي الإنفتاح على المخالف واحترام عقائده وفهومه وأفكاره.

وهو يركز على دور الجامعة في ترسيخ هذا المفهوم، بوصفها المؤسسة المعنية بتكوين النخب والمعنية، أيضا بصناعة بيئة تتلاقح فيها الأفكار وتتعايش، حيث يؤكد(أي المقال) على دور طرفي الجامعة في تحقيق تلك المهمة. وذلك بالمزيد من الوعي والانخراط في فهم تاريخ وواقع الفكر الإسلامي من جانب الطالب، وبالمزيد من الجهد لإزالة العقبات الفكرية التي تواجه الطالب من جهة الأستاذ.

Abstract :

The subject of the article, entitled: « The role of the Algerian University in the manufacture of intellectual security, the reality and the hope » is the concept of intellectual security in the Islamic context, which is dominated by the view that intellectual security is achieved only by self-censorship and prohibition of openness to the violator in religion, ... on the pretext of preserving the identity of the Islamic religion is its backbone, and others, we see , closer to the spirit of Islam and able to achieve security and harmony between the various components of society; openness to the violator and respect for his beliefs and concepts and ideas.

It focuses on the role of the university in establishing this concept, as the institution concerned with the formation of the elites and the concerned, also by creating an environment in which ideas converge and coexist, confirming (the article) the role of the two parties in achieving that task. With more awareness and involvement in understanding the history and reality of Islamic thought by the student, and more effort to remove the intellectual obstacles facing the student from the teacher.

مقدمة:

التعريف بالموضوع:

الجامعة هو إسم لمؤسسة أو هيئة تعليمية تعنى بتكوين وصناعة النخب، التي تؤول إليها أمور البلاد والعباد في سياستها واقتصادها وثقافتها وتعليمها وسائر شؤونها؛ أي أنها الجهة التي تزود المجتمع والمؤسسات بالإطارات والكوادر في كل المجالات.

وهي كذلك إسم لفضاء علمي وتعليمي وفكري يجمع الأفكار والآراء المتجانسة حينا، والمختلفة والمتباينة في أحيان كثيرة. وهي بهذا المعنى ليست معنية بتكوين وصناعة النخب، فحسب، بقدر ما هي معنية بصناعة بيئة تتلاقح فيها الأفكار وتتعايش، وتحرص على تعليم واحترام وممارسة الرأي والرأي الآخر.

ومن هذا المنطلق فإن فشل الجامعة، سواء في الجزائر أو في غيرها، في خلق تلك البيئة يعني مساهمتها في ضخ التعصب والتطرف بكل أشكاله إلى المجتمع وإلى مؤسسات الدولة، وحرف لدورها وتراجع في أداء رسالتها التنويرية. وهو ما يستدعي، في هذا المقام، ضرورة البحث فيما يعين **الجامعة في الجزائر على تأمين الدولة والمجتمع فكريا**، ويمكّنها من دورها في توفير حد أدنى من الإنسجام العقدي والفكري يضمن جبهة داخلية قوية متماسكة وعصية على الاختراق أو التوظيف؛ في ظل احترام وممارسة الفكر الحر وقبول الرأي الآخر وبعيدا عن التعصّب الذي يبيح امتلاك كل الأسلحة، ويعمل على تقويض أسس

التعايش ويهدد بنشر الخوف والإقتتال من أجل الإنتصار لهذه الفكرة أو هذا المذهب أو هذا المعتقد.

أسباب اختيار الموضوع:

ثمة أسباب استفزت الباحث بإزاء البحث في الأمن الفكري في الجامعة الجزائرية، منها:

1/ احتكاك الباحث بالوسط الجامعي والطلابي، بحكم المنصب والوظيفة، ووعيه بما هو سائد وطموحه نحو محاولة الإسهام في توفير حد أدنى من الأمن الفكري داخل الجامعة.

2/ وعي الباحثة بالخطر الذي يتهدد الجامعة؛ ومن ورائها الدولة والمجتمع جراء غياب الأمن الفكري في الوسط الجامعي.

3/ وعي الباحثة أن الأمن، بكل مستوياته، إنما يصنع في الجامعات؛ وأن مبدأه فكريا وأن الحفاظ عليها (أي مستويات الأمن) مرهون بتوفير مساحة لا محدودة من الأمن الفكري.

4/ وعي الباحثة بأن رهان الأمم المتقدمة في الحفاظ على أمنها؛ إنما يقع على تحصين مجتمعاتها وأفرادها ومؤسساتها فكريا، وأن الأمم والمجتمعات الفقيرة فكريا هي مجتمعات سهلة الاختراق.

الإشكالية:

بناء على ما سبق بيانه؛ فإن المقال يتجه نحو الإجابة عن تساؤل رئيس وهو: كيف يُصنع الأمن الفكري داخل الجامعة بوصفها مؤسسة علمية واجتماعية؟ وقد حمل عنوان: **دور الجامعة الجزائرية في صناعة الأمن الفكري- الواقع والمأمول-**

تمهيد:

تتناول هذه الورقة موضوع الأمن الفكري في الجامعة الجزائرية، من زاوية تجليات الحضور وعواقب الغياب في الواقع الجامعي؛ بغرض الوصول إلى المأمول أو البديل الذي نطمح إليه. وهي تدخل ضمن الموضوعات التي تتناول مسألة

الأمن المجتمعي؛ الذي يركز على أن الأمن لا يتم توفيره عبر الإستعدادات العسكرية والأمنية من أجل رد عدوان خارجي محتمل، فحسب بقدر ما صار معنيا بالتحصينات الداخلية لأن غالبية التهديدات بات مصدرها داخليا؛ وهو ما ترافع من أجله نظرية كوبنهاجن.

أولا تعريف الجامعة:

الجامعة هي "... عبارة عن مجموعة من الناس يبذلون جهدا مشتركا في البحث عن الحقيقة والسعي لاكتساب الحياة الفاضلة للأفراد والمجتمعات.[1] و"...هي آخر مراحل التعليم وأرقاها درجة، وتنفرد بالتعليم العالي والجامعي مجموعة من الطلاب والطالبات المتازين في ذكائهم وقدراتهم العقلية وتحصيلهم العلمي ومثابرتهم وجدهم في الدراسة وقدرتهم على البحث العلمي."[2]

وإذا تجاوزنا هذا التعريف الإجرائي؛ فإن الجامعة يمكن تعريفها بأنها البيئة التي تُصاغ فيها البنية الفكرية التي يتشكل منها عقل الطالب؛ الذي يمثل النخبة التي تؤول إليها أمور البلاد والعباد في سياستها واقتصادها وثقافتها وتعليمها وسائر شؤونها.

وهي كذلك اسم لفضاء يجمع الأفكار والآراء المتجانسة حينا، والمختلفة والمتباينة في أحيان كثيرة. وهي المكان الذي تصنع فيه الفكرة البناءة بنفس المقدار الذي تصنع فيه الفكرة الهدامة وترعى فيه الأفكار الميتة والمميتة والقاتلة. وهي، بهذا المعنى، ليست معنية بتكوين وصناعة النخب، فحسب، بقدر ما هي معنية بصناعة بيئة تصنع فيها الأفكار وتنتعش وتتلاقح وتتقى وتمحص كي تسهم في محاصرة الأفكار الميتة والمميتة ومحاربتها.

ثانيا تعريف الأمن:

الأمن في اللغة: سكون القلب واطمئنانه؛ بعدم وجود مكروه وتوقعه. قال الراغب: " أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف[3]." وقال الجرجاني: "الأمن عدم توقع مكروه في الزمان الآتي."[4] وبذلك يشتمل الأمن على بعدين: بعد آني؛ يتمثل في كونه إسم أو وصف للحالة التي يكون عليها الإنسان عند زوال

الخوف. وبعد مستقبلي إستشرافي يتجاوز الآن؛ ويعني عدم توقع مكروه في الزمان الآتي.

الأمن في السياق الإسلامي:

الأمن في القرآن:

تحدث القرآن الكريم عن الأمن، وربطه بالإيمان واعتبره مجلبة له. فـ" ... الأمن حالة مرتبطة بالإيمان الصّادق البعيد عن الشّرك ومظاهره، والمعاصي وأشكالها، فالله سبحانه وتعالى يعطي عباده نعمة الأمن حينما يقيمون حدوده ويلتزمون منهجه وشريعته في الحياة ويجتنبون نواهيه، قال تعالى في معرض التّساؤل عن أحقّ النّاس بالأمن والطّمأنينة، (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)، فمفهوم الأمن في القرآن الكريم مرتبط بمدى القرب من الله تعالى وشريعته، فكلما التزم الإنسان فيها كلّما حلّت به نعمة الأمن، وكلّما ابتعد عنها حلّ به الخوف واستبد به القلق[5] بمعنى أن الأمن يحصل بقدر ما يحصل تعلق المؤمنين، أفرادا ومجتمعات بالله تعالى والتزامهم بتعاليمه وتطبيقهم أوامره وانتهاءهم عن نواهيه؛ وهو ما تنطق به آيات كثيرة.[6]

الأمن في أصول الفقه والدراسات المقاصدية:

وإذا كان الأمن في القرآن الكريم حالة يعيشها المؤمنون؛ كانعكاس لتعلقهم بالله واحترامهم لتعاليمه، فإنه في الدراسات المقاصدية والأصولية نظام يعنى بتطبيق الحدود وسن القوانين والتعازير التي تحفظ الكليات والمقاصد الخمس؛ وهي النفس، الدين، العقل، المال والنسل. فلا يكفي أن يكون الناس مؤمنون ليتحقق لهم الأمن؛ بل ينبغي أن تكون هناك قوانين تؤمِّن لهم حياتهم. وهو بهذا المعنى يعد أحد أشكال حفظ النظام العام.[7]

الأمن في الدراسات الأمنية:

تدور أغلب معاني الأمن التي يمكن العثور عليها في الدراسات الأمنية في السياق الإسلامي حول كون "... الأمن بمعنى أولي هو غياب الشعور بالتهديد وانتفاء الإحساس بالخطر وهو بهذا المعنى غير موجود؛ إذ إن التهديد والتحدي

والصراع أمور ملازمة للحياة الفردية والجمعية."[8] وهذا التعريف يستصحب ملحوظتان اثنتان؛ **أولهما:** كونه أقرب إلى المعنى اللغوي؛ الذي يعني أن الأمن هو عدم الشعور بالمكروه أو بالخطر. وتحققه غير حاصل في دنيا الناس، كما يشير الباحث، بحكم سنة التدافع بين الخير والشر والحق والباطل التي يسير وفقها الكون. **وثانيهما:** أنه غير منفك عن التعريفات التي صيغت في الغرب، ويتم تداولها هناك. ومن أبرزها تعريف باري بوزان، أحد أبرز المختصين في الدراسات الأمنية، الذي يعرف الأمن بأنه العمل على التحرر من التهديد. وفي سياق النظام الدولي هو قدرة المجتمعات والدول على الحفاظ على كيانها المستقل، وتماسكها الوظيفي ضد قوى التغيير التي تعتبرها معادية.[9]

الأمن الفكري بين رؤيتين:

أولاهما:

1/ إن الأمن الفكري هو "... أن يعيش أهل الإسلام في مجتمعهم آمنين مطمئنين على مكونات شخصيتهم، وتميز ثقافتهم ومنظومتهم الفكرية المنبثقة من كتاب ربهم ومن سنة نبيهم، وتأتي أهميته من كونه يستمد جذوره من عقيدة الأمة ومسلماتها، ويحدد هويتها ويحقق ذاتيتها، ويراعي مميزاتها وخصائصها، وذلك بتحقيق التلاحم والوحدة في الفكر والمنهج والسلوك والهدف والغاية، كما أنه سر البقاء وسبب النماء وطريق البناء، وعامل العطاء وقاعدة الهناء، وضمانة من التلاشي والفناء، فإذا اطمأن أهل الإسلام على مبادئهم وقيمهم وفكرهم النّيّر، وثقافتهم المميزة وأمنوا على ذلك من لوثات المبادئ الوافدة، وغوائل الإنحرافات الفكرية المستوردة، ولم يقبلوا التنازل عن شيء من ثوابتهم، ولم يسمحوا بالمساومة والمزايدة عليها، وعملوا على حراستها وحصانتها، وصيانتها فقد تحقق لهم الأمن الفكري [وهو] سلامة فكر الإنسان وعقله وفهمه من الانحراف والخروج عن الوسطية، والاعتدال، في فهمه للأمور الدينية، والسياسية، وتصوره للكون بما يؤول به إلى الغلو والتنطع، أو إلى الإلحاد والعلمنة الشاملة."[10]

وخلاصة ما يريد الرجل أن المسلمين في هذا العالم يمتلكون فكرا متميزا؛ يستند إلى كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، في عالم تكثر وتتكاثر وتضطرب فيه الأفكار الموسومة في فكر المسلمين باللوث والإلحاد والتنطع والغلو. وهي كلها مستوردة ووافدة، وهي تهدد الأمن الوطني والمقومات الفكرية والعقدية والأخلاقية للمسلمين. ولذلك فإن تحصيل الأمن والسلامة لهذا الفكر؛ إنما يتم عبر حمايته وحراسته من تلك الأفكار الوافدة والملوثة والمستوردة والمنحرفة، وهكذا يتحقق الأمن الفكري.

ومع اتفاقنا على أن الأمن الفكري لأي أمة، ومنها الأمة الإسلامية، إنما يحصل بالحفاظ على عقيدتها وموروثها من أي تهديد قد يطاله. إلا أن السؤال الذي ينبغي طرحه في سياقنا ومجتمعنا، هو كيف يحصل ذلك؟ أقصد هل يتحقق، كما يذكر صاحب التعريف، بتجهيل وتكفير وتبديع وتضليل المخالف بدعوى لوثة فكره وإنحرافه عن المنهج الصحيح؟ أم يتحقق باحترامه والإنفتاح عليه؟ هل الحجر على الرأي المخالف والفهم المخالف هو ما يحقق الأمن الفكري؟ أم أنه هو ما يصنع الخصومات والعداء ويوسع دائرة الإحتقان والتشنج عند المخالفين بسبب تسفيه عقولهم وأحلامهم وقذفهم في دينهم وعقائدهم والتعالي عليهم، وعبر ممارسة وتكريس منطق (شعب الله المختار)؟ هل إن تعدد الآراء والفهوم وقبول المخالف في الطائفة والمذهب؛ يعني تهديد للأمن الفكري للمسلمين؟ هل أن أمننا الفكري لا يتحقق إلا بوجود رأي واحد وفهم واحد. وأي وجود لفهم آخر أو رأي آخر أو وجود مخالف في الدين والمعتقد والطائفة والمذهب والفكر هو تهديد للأمن والهوية؟

إن الأمن الفكري يقدم عند صاحبه هنا؛ على أنه رفض لكل مخالف في الفكر أو العقيدة أو المذهب أو الطائفة، بوصفه صاحب لوثات وافدة وانحرافات فكرية مستوردة. ويذهب إلى معادلة مفادها أن الأمن الفكري إنما يتحقق متى خلا المجتمع من الآراء المتعددة والفهوم والعقائد والمذاهب والمواقف المختلفة، وأنه بقدر ما ترفض مخالفك تأمن، وحتى تأمن يجب أن تقضي عليه !!

إن الناظر في هذا التناقض الصارخ في توصيف الأمن الفكري وتبسيطه، وهذه النظرة الاختزالية لمفهوم الأمن الفكري يلحظ أنه مفهوم، وعلى العكس من الصورة التي يقدم بها، هو مفهوم قمعي يهدد التلاحم ويستبطن أسباب التمزق ويصنع الخوف؛ إذ كيف يمكن أن يكون التصدي لباقي الفهوم والتيارات الفكرية أو العقدية وتبديعها وتكفيرها وتجهيلها واحتكار الفهم الصحيح، ورفع شعار التعالي والتميز هو من قبيل تحقيق الأمن الفكري؟ أليس ذلك هو الإرهاب الفكري عينه؟

وهنا لا بد من فرز بعض الأمور منها:

1/ إن الفكر الإسلامي تشكل عبر مراحله التاريخية، ولا زال، في بيئات فكرية ودينية وعرقية وجغرافية مختلفة ومتباينة، وتشكل وهو يتشكل في ظروف وتقلبات سياسية وثقافية وتاريخية بالغة التعقيد. ومن الطبيعي جدا، وفي هذه الأجواء والظروف، أن ينعكس كل ذلك على نظرة واختلاف الناس في درجات الفهم والعلم، ومن ثمة اختلافهم في فهم أو تفسير هذا الموضوع أو هذه المسألة.

2/ إن ذلك(أي اختلاف المواقف والآراء والفهوم) قد طال قديما أصول الدين ودقائقه وجزئياته؛ يدل على ذلك وجود تيارات وفرق بحثت وتفاوتت في تفسير وشرح وتخريج الآراء والفهوم والاستدلال عليها والجدل بشأنها، وهو مبثوث في كتب الفرق والمدونات الكلامية.

3/ إن تعدد الآراء والفهوم بإزاء مسألة أو جزئية عقدية معينة هو إثراء للساحة الفكرية وليس مصدر تهديد؛ إنما يقع التهديد عندما نُحَوِّل أحد الفهوم أو التفسيرات أو الأفكار إلى عقيدة، ونعمد، سواء كنا أفرادا أو هيئات ومؤسسات، إلى إلزام جميع المكونات الفكرية والعقدية والإثنية في المجتمع الواحد بها بوصفها الأصح والأصوب.[11]

وهنا يصبح السؤال ملحا: كيف يمكن أن نصنع حالة لا تشكل فيها الآراء المتعددة أو المذاهب المتعددة من مختلف المشارب الفكرية والعقدية والمذاهب تهديدا؛ ومن ثمة تحقيق الأمن الفكري بمعناه الذي يتجاوز تحققه

متى حوصرت بعض الأفكار والفهوم لمصلحة هذه الفكرة أو هذا الفهم؟ أو تحققه بوجود مختلف الآراء والمذاهب والفهوم والطوائف والعقائد؟

ثانيهما:

إن الأمن الفكري هو واحد من مراتب أو أنواع الأمن الأخرى مثل الأمن الاقتصادي والسياسي والاجتماعي وغيرها. وهو لذلك يعد مفهوما تخوميا؛ بمعنى "...أنه مشترك بين قطاعات الفعل الإنساني المختلفة؛ إذ لكل فعل جانب أمني ولكل العلوم التي تتناول الإنسان جوانب أمنية."[12] وتحققه في الواقع مرهون بالممارسة؛ بمعنى أنه لا يتحقق بمعزل عن المكونات الدينية والعقدية والاجتماعية والفكرية والثقافية الأخرى؛ بقدر ما يتحقق بإعادة تشكيل وعي فكري متصالح معها. وهذه المعركة (أقصد معركة صياغة وعي فكري متصالح مع ذاته ومع غيره) تبدأ من الجامعة.

ثالثا الأمن الفكري داخل الجامعة:

إن تشكيل ذلك الوعي المأمول يبدأ من الجامعة ويصنع في مخابرها وأقسامها ومدرجاتها، وبين مختلف مكوناتها وعناصرها؛ فالجامعة هي الفضاء الذي تصنع فيه الأفكار الحية بالقدر الذي تبعث فيه الحياة في الأفكار الميتة والقاتلة. وهي الفضاء الذي يقع عليه التعويل في صناعة أمن فكري يمتد إلى خارج أسوارها؛ ليشمل المجتمع وسائر مؤسسات الدولة. وما لم تتمكن الجامعة من توفير أمن فكري بداخلها فإنها ستفشل ويفشل المجتمع والدولة معها.

وصناعة الأمن الفكري داخل الجامعة عملية تتطلب وعيا كبيرا لأن الأمن الفكري، هو في الواقع، مفهوما ختالا؛ كون الجامعة، كما سبقت إليه الإشارة، تحوي اتجاهات وتيارات وأفكار ورؤى متعددة وهي فضاء حر. وكل ذلك يجعل عملية صناعة الأمن الفكري عملية ليست سهلة؛ ذلك أن التحديات والتهديدات والمخاطر التي تتشكل وتتكون في هذا الوضع لا حدود لها، وقد تطل من أي مكون أو تيار أو طرف أو جهة في أي لحظة وفي الزمن الغير متوقع والظرف الغير محتمل أيضا. فـ"...ثمة أنماط من التهديد لا تكون ظاهرة

وتتسلل بشكل خلاسي[...] إذ تتسم بعض المظاهر والفواعل التاريخية والاجتماعية والثقافية والسياسية بالقدرة على النهوض في وقت يعتقد فيه المراقبون وصناع السياسات أنها تراجعت وانكسرت."[13] ولذلك فإن المعادلة هنا تصبح: كيف يمكن أن نحقق علاقة تصالحية مع كل المكونات والتيارات وفي والوقت نفسه نأمن تهديداتها ومخاطرها الغير متوقعة؟

ثمة طرفان أو مُكوِّنان يقع الرهان والتعويل عليهما في فهم الموضوع؛ بالحد الذي يمكننا من تحقيق تلك المعادلة، وأعني بهما الطالب والأستاذ. وهو ما سأعرض له في العنصرين التاليين.

الطالب... والأمن الفكري... عقبات وعوائق.

عقبات وعوائق يحتاج الطالب توضيحا لها، ومن ثمة إزاحتها من طريقه نحو تأمين جامعته ووسطه.

1/ إن الفهوم العقدية أو الفكرية التي تقدم على شكل "ما أريكم إلا ما أرى" تشكل أبرز عقبات تحقيق الأمن الفكري في الجامعة ومن ثمة في المجتمع؛ فالمذهب العقدي أو الفكري الذي يقدم نفسه على أنه الفهم الأوحد الذي يجب على جموع المسلمين أن يصطفوا وراءه، ويعمد إلى القضاء أو إلى مزاحمة فهوم أخرى بالتبديع والتكفير والتجهيل هو واحد من العقبات التي ينبغي تجاوزها؛ لأن الجامعة والمجتمع لم يعد يتحمل منطق تبديع الآراء والمواقف وتضليل وتكفير أصحابها بقدر ما بات يبحث عن صيغ تفهمها.

2/ ثمة عقبة أخرى يجب توضيحها، وهي فقدان القدرة على تصور حد فاصل بين مبادئ وأصول العقيدة الإسلامية التي عليها إجماع المسلمين. وبين الفهوم التي تعلقت بواحد من تلك الأركان والأصول أو جزئية من جزئياتها، والتي تشكلت في ضوئها الفرق والتيارات الإسلامية التي عرفها المسلمون قديما، ولا يزالون ينتهجونها ويعتقدونها في حياتهم كالأشعرية والمعتزلة والإباضية والشيعة. فالناظر في تاريخ الفكر الإسلامي يمكنه أن يفهم أن تلك الفرق لم يكن افتراقها حول أصول العقيدة الإسلامية؛ المتمثلة في الإيمان بالله

وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره؛ إنما كانت ولا زالت حول جزئيات متعلقة بتلك الأركان والمبادئ.[14]

3/ على أن البحث الجدي يقتضي أن نشير إلى أن معظم تلك الإشكالات لم تحسم فكريا، بل حسمت بقرارات الحكام. وهذا هو ما تغفل عنه الكثير من القراءات داخل المراكز المتخصصة؛ حيث تحتفظ بالنظرة الموروثة وتقدمها للمتلقين بوصفها التفسير الصحيح. ولذلك هي تستدعى واستدعيت في مراحل كثيرة من حياة الأمة كلما دعت حاجة المصالح الدولية إليها وتوظيفها من أجل تحقيق مصالحها بتمزيق الأمة.[15]

4/ عدم القدرة على تصور حد فاصل بين ما تتطلبه العقيدة من تمسك وتشبث؛ يشكل ممارسة إيمانية وتقرب إلى المعبود سبحانه وتعالى. وبين ما تقتضيه أوضاع البلد أو الأمة من الحفاظ على وحدتها ومصالحها وعدم المغامرة بأمنها وتماسكها وانسجامها؛ فتفهم المسلم، أيا كانت طائفته أو مذهبه أو رأيه أو فكرته، لأوضاع الأمة وضرورة وحدتها والمخاطر التي تواجهها من قبل قوى الهيمنة في العالم التي لا تفرق بين تلك الآراء والمواقف والمذاهب والطوائف إلا بما يخدم مصالحها هو من هذا القبيل. فالحفاظ على وحدة الأمة ووحدة المجتمع بمختلف أبعاده الحضارية والتاريخية والآنية والمستقبلية يقتضي تفهم طبيعة الخلافات في الجزئيات والفهوم العقدية والفكرية وتجاوز الخلافات بشأنها.[16]

5/ هناك عقبة أخرى؛ ينبغي العمل على إزاحتها. وهي ضرورة الوصل بين الجامعة والمجتمع؛ فإذا كان المعني بصناعة الأمن الفكري هو الطالب؛ فإننا نفهم حينئذ أن تلك الصناعة لا تتجاوز أسوار الجامعة. وهي، على أهميتها، ستفقد فعاليتها إذا لم يتم تصديرها وإخراجها إلى عموم المجتمع حتى تتحول إلى ثقافة مجتمعية يؤمن بها جميع الناس كل في مستواه، ولا يكون ذلك إلا عبر التواصل وتفعيل التواصل مع كل المكونات والفئات ومن كل المواقع من الأسرة إلى المدرسة والمسجد ووسائل الإعلام والمنظمات والهيئات... وغيرها؛ أي

جعل العلاقة بين المجتمع والجامعة أكثر توطيدا والتحاما وتزويج الجامعة بالمجتمع.

6/ ثم إن هناك ملحوظة جديرة بالتنبيه؛ وهي صعوبة تقييد الناس اليوم، وبدرجة كبيرة طالب الجامعة، وإلزامه بفكر واحد أو رأي واحد أو مذهب عقدي أو فقهي معين نظرا لعوامل عديدة منها الانفتاح الإعلامي الذي بات يتيح الفرصة للإطلاع على مذاهب وآراء شتى من المستحيل ضبطها أو التحكم فيها؛ ذلك أن"... الانفتاح الإعلامي الواقع والذي يسمح برواج مختلف المذاهب والأفكار قد جعل التعليم والتكوين وفق مذهب معين أمرا عسيرا، وما عادت فكرة إلجام العوام عن علم الكلام وما فيها معناها ممكنة اليوم. فحتى مع اختيار السلطة القائمة في بلد من البلاد لمذهب أو فكر ما، فهذا لا يمنع من وجود غيره."[17]

7/ ولذلك كله فإن المراهنة ينبغي أن تجري، بنظري، على وعي الطالب؛ بمعنى أن يفهم الطالب أمورا. وهي أن الدين أو الطائفة أو المذهب لا مكان له في الحسابات السياسية إلا بالقدر الذي يحقق المصلحة، وأن استدعاء الطائفة أو المذهب هو من قبيل التوظيف الذي يستفيد منه أعداء الأمة. وأن يعي أن تفهم الآراء العقدية والفكرية المخالفة واحترامها هو ما يصنع الطمأنينة والسلامة والأمن الفكريين؛ فليس يعني إيمان المؤمن بعقيدته وصوابيتها وحقانيتها وهيمنتها أمنا فكريا إذا كان ذلك يهدد باقي الموجودات العقدية والفكرية ويعمل على إلغائها. في الوقت الذي هي تشكل عند أصحابها وأتباعها صوابا وحقا. ذلك أن الأصل أن الاعتقاد بعقيدة ما والإيمان بها إذا حقق أمنا فكريا لمعتنقه فإن ذلك أدعى أن يوفر بالقدر نفسه أمنا للمخالف على دينه ونفسه وماله وعرضه وعقله. وأن يفهم أن احترام رأي المخالف أو عقيدته أو مذهبه أو طائفته لا يعني الاقتناع به، وأن الاقتناع الذي ينبغي حصوله هو لأصل الاحترام؛ كقيمة إنسانية تصنع السلامة الفكرية الداخلية للشخص نفسه وليس لمضمون الرأي. ولذلك رأينا القرآن الكريم يقر ببقاء المخالفين على دينهم، ولا يعني

ذلك أنه يؤمن بعقيدتهم؛ فقال: " لكم دينكم ولي دين" مع أن "الدين عند الله الإسلام."

الجامعة الجزائرية... أسس وضمانات الأمن الفكري.

فإذا كانت العقبات هي ما يعترض الطالب؛ فإن الضمانات هي ما ينبغي أن يوفرها الأستاذ؛ بوصفه العمود الفقري في العملية التربوية والتعليمية عموما، وهو في هذا المقام وبخصوص موضوع الأمن الفكري، يعد دوره رئيسا. يقول الدكتور رابح تركي: " ...إن أعباء التعليم الجامعي والعالي هي أعباء ثقيلة جدا لا يقوى على النهوض بها إلا أصحاب المواهب الممتازة."[18] ولذلك من الضروري أن تتوفر فيه جملة من الشروط.

1/ شروط ذاتية:

يشكل جانب الموهبة والمنة الربانية جزء كبير منها، وإن كانت لا تعدم الجانب المكتسب، ولعل ذلك ما يتحدث عنه رابح تركي عندما يقول: " أصحاب المواهب الممتازة"؛ فهو يريد أن يتجاوز التركيز على الكفاءة أو المقدرة العلمية كشرط لتمام الأستاذية. ونعني بها، في هذا المقام، أن يكون الأستاذ إنسانا متصالحا مع إنسانيته؛ إنسانا يعيش سلما وأمنا داخليين يقوى بهما على التواصل وتصدير الأمن والأمان للمتلقي، ويؤهله لمعرفة واقع مجتمعه وحاجاته وضغوطاته وإكراهاته، ويمكنه من التعرف على الطالب وقدراته وآماله وآلامه وطموحاته واستعداداته، والعمل على احترامها وتطويرها. فما لم يكن الأستاذ متصالحا مع ذاته قادرا على صناعة أمنه الداخلي فإن العملية التربوية التي يباشرها تظل منقوصة ولا تحقق دورها.

2/ شروط موضوعية:

ونعني بها، بدرجة أساسية، الشرط المعرفي أو القدرة المعرفية. التي لا تؤدي دورها في المتلقي إلا بتوفر شرط بالغ الأهمية في تحصيل الأمن الفكري في الجامعة. ونعني به انفتاح الأستاذ على الآراء والمذاهب والأفكار والأديان والعقائد وغير ذلك... بالقدر الذي يمكنه من"... العمل على تنوير عقول الطلاب وتهذيب نفوسهم لكي يدركوا الأسس التي يرتكز عليها المجتمع وحضارته

وثقافته وبالتالي يتحررون من قيود الأوهام والأراجيف والعصبيات الضيقة على اختلاف أنواعها. وهي كلها أمور تعوق تحقيق النهضة وقيام الحضارة الصحيحة في كل مجتمع."[19] وهذه الأمور التي يذكر الرجل لا تعيق قيام الحضارة فحسب، بل ينذر تجاوزها أو التغاضي عنها بتهديد وفتن وانقسام اجتماعي وتراجع واندثار للمكتسبات المادية والمعنوية. وإننا نعاشر أساتذة يمتلكون من العلم زادا غير قليل، لكن لا يملكون انفتاحا على المخالف في الدين أو العقيدة أو الرأي أو الفكرة أو المذهب؛ وهم يعيشون امتعاضا شديدا يبدو في نقاشاتهم ودروسهم ومحاضراتهم الموجهة إلى الطلبة من كل ما يخالف قناعاتهم الدينية أو الفكرية. وهم بذلك يسهمون في تقييد العقول وقولبتها ومنعها من التحرر والانعتاق، ويعملون على توتير الأجواء وإشاعة الكراهية والخصومة.

غير أن هناك من يقدم جملة من المحاذير تستبطن اتهام الانفتاح؛ كضرورة معرفية يجري التعويل عليها من أجل صناعة جامعة تقبل التنوع والتعدد، وتعمل على تنشيطه ونشره والحفاظ عليه حتى يغدو، مع الممارسة، هوية فكرية للجامعة الجزائرية. وتتمثل تلك المحاذير في ما يلي:

أوّلا: إن الانفتاح على الآراء والأديان والمذاهب هو تهديد للأمن الفكري للمجتمعات الإسلامية؛ لذلك يرى أصحاب هذا الرأي أن الشريعة الإسلامية قد منعت الانفتاح حتى يأمن الناس على دينهم وعقيدتهم وأفكارهم. يقول أحدهم: "... لأن الناس إذا اطمئنوا على ما عندهم من الأصول والثوابت، وأمنوا على ما لديهم من قيم ومثل ومبادئ، فقد تحقق لهم الأمن في أسمى صوره وأجلى معانيه وأنبل مراميه، وإذا تلوثت أفكارهم بمبادئ وافدة، ومناهج دخيلة وأفكار منحرفة وثقافات مستوردة، فقد جاس الخوف خلال ديارهم، وحل بين ظهرانيهم ذلك الخوف المعنوي، الذي يهدد كيانهم ويقضي على مقومات بقائهم؛ لذلك حصرت شريعتنا الغراء على تعزيز جانب الأمن الفكري لدى الأفراد والمجتمعات، وكان لها قصب السبق في ذلك عن طريق تحقيق وسائل متعددة، أسهمت في حمايته والحفاظ عليه من كل قرصنة، سواء كانت

فكرية أو سمسرة ثقافية أو تسللات عولمية، تهز مبادئه وتخدش قيمه وتمس ثوابته ."[20] وهو غير صحيح لأن نقيضه؛ أي الانغلاق هو ما يشكل الخطر والخوف ويجلب التحجر والتعصب والطائفية التي لا ترى إلا نفسها ولا تعتقد الصواب إلا في ما عندها. وعلى النقيض من ذلك تماما؛ فإن الانفتاح هو ما يضمن الأمن الفكري ويبعد هاجس الخوف، ويجعل الناس مطمئنين إلى ما عندهم من الثوابت والمبادئ. وليس صحيحا دعواهم أن التهديد والخوف يجوس خلال الديار إذا خالط المسلمون أفكار مخالفيهم، وليست كل الأفكار والآراء ملوثة ومنحرفة. وليس صحيحا أن الشريعة دعت إلى هذا التقوقع الذي يسمونه أمنا.

ثانيا: الانفتاح تهديد للذات والهوية، وهو غير صحيح لأن الهويات الراسخة لا تهددها الأفكار الوافدة والدخيلة، مهما اشتدت، إلا إذا كان لدى أصحابها استعدادا أسماه مالك بن نبي " القابلية للاستعمار" وحينئذ لا يصبح الإشكال متعلقا بالانفتاح بقدر ما هو متعلق بالشخص أو المجتمع الغير قادر عليه أو الغير مستعد له. يقول المفكر الجزائري عبد المجيد مزيان: " ... إن أكثر ما نخشاه في هذا النضال الفكري هو أن يعتقد بعض العلماء بأن التوغل في هذه الجبهات العقائدية قد يؤدي إلى الانسياق مع التيارات المشعبة وتصبح طبيعة فكرنا الإسلامي متغيرة مع العصور ثم منحرفة عن مبادئها الأساسية. ولعل الكثير منا سيدعون دعوة صادقة إلى عدم خوض هذه المعركة خشية فقدان الذات في متاهاتها وسيدعون دعوة صادقة كذلك إلى التمسك بسلفية صلبة ترفض الإصغاء إلى ما يحدث في العالم من بدع وإبداعات ثقافية. غير أننا نصغي وننتبه إلى ما يجري في ضمير أجيالنا الناشئة من أزمات وتطورات كلما لقيت ثقافات الآخرين وانجذبت إليها وسألتنا عن مستوى إبداعاتنا بالمقارنة مع إبداعات الآخرين[...] والسلفية الصامدة اليوم لا يمكن أن تكون حصرا وتضييقا بل هي بحكم معاصرة التطورات العلمية والفكرية سلفية ثراء ثقافي وإتقان عقائدي تطمح إليه الأجيال ولا نتصور الفطرة التي هي فطرة التوحيد وفطرة الإنسانية الصافية من الانحراف فطرة غفلة في عصر العلم بل هي فطرة مراجعة مستمرة للضمير البشري بعد معرفة عميقة بكل أسباب الانحراف وكل الفتن

الفكرية التي تأتينا من ذاتيتنا وممن يسالمنا وممن يعادينا من مختلف الثقافات."[21] ولذلك فإن الانفتاح هو ما يحقق للمسلم معرفة إنسانية عميقة ومعرفة بذاته أعمق، واحترامه لا يهدد الهوية بقدر ما يثري الساحة الفكرية والثقافية ويجنبها المصادمات والانزلاقات.

ثالثا: ثمة من يرى أن الانفتاح تخريب للمرجعية الفقهية والعقدية والفكرية للطالب والمجتمع؛ ذلك أن التعرف على المذاهب والتيارات والأديان والأفكار والمعتقدات المخالفة، بحسب أصحاب هذا المحذور، يوشك أن يذهب عقيدة ومبادئ وثوابت هذا المجتمع، ويخرب مرجعيتها. جاء في ديباجة الملتقى الذي نظم بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة حول المرجعية الفقهية والعقدية ما يلي: " في هذا العصر تتعرض هذه المرجعية، أي المالكية الأشعرية، إلى محاولات انتقاص وهجران من كثير ممن لا يشعرون بانتماء مذهبي أصيل أو ممن يخلط بين الانفتاح العلمي[22] والاجتهاد المذهبي والحوار الحضاري وبين أن يقتضي ذلك تخريبا للمرجعية المالكية الأشعرية."[23]

غير أن الحفاظ على المرجعية والثوابت لا يعني التقوقع وحظر التواصل والانفتاح بغرض المعرفة؛ إذ من الغفلة أو العمد أو الجهل أن نغلق على الطالب بذريعة الحفاظ على عقيدته. وفي ظل سرعة التواصل الذي توفره وسائل الاتصال والتكنولوجيات الحديثة يكون من الصعب إحداث حالة من الانغلاق على فكره؛ لأن ذلك قد يحدث رد فعل غير مرغوب ومدمر. تقول الباحثة الجزائرية وسيلة خلفي: "... الانفتاح الإعلامي الواقع والذي يسمح برواج مختلف المذاهب والأفكار قد جعل التعليم والتكوين وفق مذهب معين أمرا عسيرا، وما عادت فكرة إلجام العوام عن علم الكلام وما في معناها ممكنة اليوم. فحتى مع اختيار السلطة القائمة في بلد من البلاد لمذهب أو فكر ما، فهذا لا يمنع من وجود غيره."[24]

من هنا كانت دعوة العديد من المفكرين إلى الرقي بالتعليم الجامعي إلى مراتب الاحترام؛ الذي لا يكون إلا " ...إذا أقمنا التعليم الجامعي على مبادئ الاحترام العميق لكل عقيدة مخلصة والتسامح المتبادل وممارسة الحرية

ممارسة حكيمة وذكية[لأنه] ليست مهمة الجامعة أن تقرر أين يكون الخطأ ولا أين يكون ما ينبغي أن يعتقد ولا ما ينبغي أن يرفض وليست وظيفتها أن تعد أي قيد للعقول والنفوس. وإنما وظيفتها الحقيقية أن تكشف عن الطالب غطاءه ليكون بصره حديدا. وعندئذ يستطيع أن يميز بين الأمور مختارا ويتيسر له أن يحكم بنفسه على الأشياء والأشخاص أحكاما خالية من التعصب والهوى."[25]

الخاتمة:

1/ إن الأمن الفكري هو أحد مستويات الأمن الذي تحرص الأمم والمجتمعات اليوم على العناية به وتقويته من أجل تحصين الجبهة الداخلية؛ لأن الدراسات والوقائع أثبتت أن أغلب التهديدات مصدرها من الداخل.

2/ إن الجامعة هي المكان الطبيعي الذي يصنع فيه الأمن الفكري، وإن الطالب هو أكثر من بيده تفويت فرصة استغلاله أو توظيفه في تحطيم مجتمعه.

3/ إن الأمن الفكري يصنع بالانفتاح على الآراء والفهوم والمذاهب والعقائد والأديان، كما يصنع بالبحث عن صيغ تفهمها واحترامها وليس بتسفيهها وتبديعها وتجهيلها بدعوى انحرافها.

4/ إن الانفتاح لا ينبغي أن يتحول إلى نزعة وثوقية تسقط من حساباتها دور الخطر الذي تمثله الصراعات الطائفية والمذهبية والأيديولوجية الختالة والمتواجدة في الجامعة.

5/ إن الطالب والأستاذ هما المعنيان بتجاوز تلك النزعة الوثوقية وتحقيق معادلة الانفتاح والأمن الفكري عبر المزيد من الوعي.

هوامش البحث:

[1] رابح تركي، وظائف التعليم في المرحلتين الثانوية والجامعية (مجلة الثقافة، ع63، السنة الحادي عشر، جوان1981، ص44).

[2] المرجع نفسه، ص38.

(3) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط4، (دمشق: دار القلم، 2009، ص 90).

(4) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، د ط، (بيروت: مكتبة لبنان، 1985، ص38) .

(5) أنظر: عبد الرحمن بن صالح المحمود، مفهوم الأمن في القرآن، تاريخ النشر: 2014/6/26 http: //www.tafsir.net/article/4674

(6) ومثله قوله تعالى: "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف." وقوله: " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء." الأعراف/96.

(7) أنظر على سبيل المثال عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة وأحمد محمد عبد العظيم، أمن الأمة من منظور مقاصد الشريعة.

(8) عقيل سعيد محفوض، في مفهوم الأمن: مقاربة معرفية إطارية، مؤمنون للدراسات والأبحاث، قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة، 29/ ديسمبر/ 2016، ص4

http: //www.mominoun.com/articles

(9) أنظر مؤلفات الكاتب حول الموضوع the national security ,fear and state , people : problem in internatinal relations. وpowers: the structure of region and international security

(10) الأمن الفكري: مفهومه، ضرورته ومجالاته، تاريخ الإدخال 18 يناير 2011

http: //www.assakina.com/mohadrat/20130.html

(11) / يمكن أن نرصد كمثال في التاريخ حادثة خلق القرآن وما تبع تلك الحادثة من حالات خوف وترهيب وسجن واعتقالات ومصادرة للآراء وتكميم للأفواه وحرق للكتب وملاحقات واستنطاقات للعلماء وأهل الرأي سواء في عهد المأمون الذي ناصر المعتزلة، أو المتوكل الذي انتصر للمحدثين والفقهاء.

(12) عقيل سعيد محفوض، في مفهوم الأمن: مقاربة معرفية إطارية، مرجع سابق، ص 8

(13) عقيل سعيد محفوض، في مفهوم الأمن: مقاربة معرفية إطارية، مرجع سابق، ص11 نقلا عن: أمارتيا صن، الهوية والعنف: وهم المصير الحتمي، ترجمة: سحر توفيق، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ع352، يونيو 2008.)

(14) ومن أمثلة ذلك مسألة صفات الله تعالى بين تأويلها بغرض التنزيه وتفويضها بغرض إثباتها؛ حيث لا يعثر الباحث على ما يؤكد أن أحدا من الطرفين ينفي صفات الله تعالى أو ينكر كونها؛ وهي من أكثر المسائل التي وقع بها افتراق المسلمين.

(15) مثل تبديع وتكفير آل البيت لمصلحة بني أمية وبني العباس، وتكفير الفقهاء والمحدثين لمصلحة سلطة المأمون والمعتصم والواثق ثم تبديع وتضليل المعتزلة لمصلحة المتوكل وهكذا... ولا تزال العملية والتوظيف السياسي للمقولات والفهوم يعمل بقوة اليوم لمصلحة قوى الهيمنة في العالم الإسلامي.

(16) ربما كان موقف هارون عليه السلام من هذا القبيل عندما ترك بني إسرائيل يعبدون العجل حفاظا على وحدتهم فقال تعالى على لسان هارون عليه السلام: " يا ابن أم لا تأخذ برأسي ولا بلحيتي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي " طه/ 92

(17) وسيلة خلفي، استقرار المرجعية الفقهية في ضوء مفهوم المذهبية، مجلة المعيار، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ع36، ص527.

(18) رابح تركي، المرجع السابق، ص 39.

(19) المرجع السابق، ص 42.

(20) http: //www.assakina.com/mohadrat/20130.html مرجع سابق

(21) عبد المجيد مزيان، أمانة التوحيد والإنسانية في الفكر الإسلامي المعاصر، (مجلة الثقافة، ع89، سبتمبر- أكتوبر، 1985، السنة الخامسة عشر، ص 25.

(22) يقول الباحث الجزائري جمال مفرج أن استعمال تعبير "تخريب المرجعية الدينية من قبل الانفتاح العلمي " غير موفق هنا؛ لأن هذا التعبير يراد به ما حدث في عصر الأنوار في أوروبا من عمل على استبعاد المعارف الدينية المسبقة لمصلحة العلوم العقلية والوضعية؛ والذي تعمل على استدعائه الدوائر الحداثية في العالم العربي والإسلامي إسوة بما حدث في أوروبا، ومحاولة تطبيقه في السياق الإسلامي. أنظر: جمال مفرج، المرجعية الدينية والأحكام المسبقة من التشكيك إلى إعادة الاعتبار، ضمن أعمال: الملتقى الدولي حول: المرجعية الفقهية والعقدية في الجزائر واقعها وآفاقها، مجلة المعيار، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ع36، ج2، ص873. وهذا الانفتاح مرفوض تطبيقه في

السياق الإسلامي ولا نعنيه؛ لأن الوحي والمعرفة الدينية المستقاة منه في الفكر الإسلامي هو المصدر الأول للمعرفة.

(23) ديباجة الملتقى الدولي " المرجعيات الدينية والعقدية في الجزائر: واقعها وآفاقها." جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، أيام: 17/ 18/ 19 نوفمبر 2004.

(24) وسيلة خلفي، استقرار المرجعية الفقهية في ضوء مفهوم المذهبية، (مجلة المعيار، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ع36، ص527.)

(25) عثمان أمين، رسالة الجامعات في العصر الحديث، (مجلة الأصالة، ع4، أكتوبر، 1971، السنة الأولى، ص22-23.